فالحق سبحانه وضع شروطاً للشفاعة ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قال العلماء: يُشترط للشفاعة شرط في المشفوع له أن يكون من أهل التوحيد ، وشرط في الشافع أنْ يُؤذن له بالشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فلا يقوم الشافع فيشفع مباشرة ، إنما ينتظر أنْ يُؤذَن له بها ، وهنا يضطرب المشفوع له ويفزع ، ويكون قلقاً : يا ترى أيُؤذن للشافع ؟ أم تُرَد شفاعته ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] يعني : أُزيل عنها الفزع . فالتضعيف في (فُزِّع) أفاد إزالة الحدث المأخوذ منه الفعل ، كما نقول (مرَّضه) يعني : أزال مرضه و (قشَّر البرتقالة) يعني : أزال قشْرتها ... إلخ .

﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] أي : قال القول الحق ، وأذن بالشفاعة لمن ارتضى .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ.. (٢٣) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ تُقبل الشفاعة ؛ لأن هدف الشافع أن تنفع الشفاعةُ المشفوعَ له ، فإذا ما ذهب ليشفع له قال له المشفوع عنده : أنا لا أرضى أنْ تشفع

للمشـفوع له ، فـالذى انتفى نَفْع الشفـاعة لا قبـولها ، فـفَرْق بين أنْ توجد الشفاعة ، وبين أنْ تنفع الشفاعة .

وفى سورة البقرة آيتان فى الشفـاعة صدرهما واحد ، لكن العَجُز مختلف ، ففى الأولى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

وهاتان الآيتـان من المواضع التى وقف أمـامهـا المسـتشـرقون ، وظنوا فيها مأخذاً على كـلام الله ، فالمعنى واحد حتى اللفظ هو هو ، لكن فى الأولى قدَّم ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ .. (٤٨)﴾ [البقرة] وفى الأخرى قدَّم : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(١٢٣)﴾ [البقرة] وفى الأولى قال ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .. (٤٨)﴾ [البقرة]

وهذا الاعتراض منهم نتيجة عـدم الفهم عن الله ، فالآيتان تتحدثان فى الشفاعة عن نَفْسـين . الأولى : النفس الشافعة . والأخرى : النفس المشـفوع لها ، الشافع له مـوقف مع الله ، والمشفـوع له ، له موقف قبل ذلك ؛ لأنـه لم يأْتِ بالشافع إلا لأنه لم يقـدر على إنهاء المسألة بنفسـه ، فالضمـير يعود فى الآية الأولى على الشـافع ، وفى الأخرى على المشفوع له ، كيف ؟

المعنى هنا : لا تجزى نفسٌ شافعة عن نفس مشفوع لها ، النفس الشافعة هى التى يُقبل منها الشـفاعة ، والنفس المشفوع لها هى التى تنفعها الشفاعة ، إذن : الآية الأولى تخصُّ الشافع ؛ لأنه يذهب ليشفع

فلا يُقبل منه ، فـيعرض أنْ يدفع هو العدل ، ويكون كفيـلاً فيما على المشفوع له ، فلا يُقبل منه أيضاً .

أمـا الآية الأخرى فـهى فى المـشفـوع له ؛ لأنه يعـرض أن يدفع ما عليه أولاً فلا يُقبَل منه عدل ، فيبحث عمَّنْ يشفع له .

وسُمِّيت شفاعة ؛ لأن الشَّـفْع يقابل الوتر ، وصاحب الحاجة الذى يطلب الشفـاعة واحـد ، فإذا انضم إليه الشـافع ، فهمـا اثنان يعنى : شفع .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ [سبأ] علىٌّ أنْ يُناقَش فى أى قرار يتـخذه ، وكبـير يعنى أكبـر من الشافع ، وأكبـر من المشفوع له . فـالحق سبحـانه قال الحقَّ ونطق به ، وهذا يعنى أنه وقف بجانب الحق ، فلم يعبأ بشافع مهما كانت منزلته ، ولا بمشفوع له مهما كانت ذلَّته ورِقَّته ؛ لأنه سبحانه هو العلىُّ الكبير .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى مناقشة المسألة مناقشة عقلية ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾

أى : قُلْ لهم يا محمـد : مَنْ يرزقكم من السموات والأرض ؟ لكن إذا كـان محـمد هو الـمسـتفـهم منهم ، فـمَنْ يجـيب ؟ بالطبع هم لن يجـيبـوا ؛ لذلك أجـاب الله (قل الله) فهـذه حقـيقـة لا يسـتطيعـون مجابهتها ، ولو اعـترفوا بها لَقُلْنا لهم إذن : لماذا لم تؤمنوا بالله وهو رازقكم ؟

أيليق بكم أنْ تكفروا به وهو الرازق ، وتؤمنوا بآلهة أخرى لا تنفعكم ولا تضركم ؟ فاعترافهم بهذه الحقيقة يلزمهم الحجة ، ويقيم عليهم الدليل على سَفَه تفكيرهم ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعفيهم من هذا الحرج ، فأجاب بدلاً منهم .

والحق سبحانه يسألهم هذا السؤال ؛ لأن الإجابة لن تكون إلا على وَفْق مراده سبحانه وتعالى ، كما لو اشتريتَ مثلاً (بدلة) لشخص ما وفى موقف من المواقف أنكر جميلك ، فتقول له : مَن الذى اشترى لك هذه (البدلة) ؟ أنت لا تسأل هذا السؤال إلا وأنت واثق أن الإجابة ستكون فى صالحك ، وأنه لا يستطيع الإنكار ، فلو أنكر ستقول له : تعال إلى التاجر الذى اشتريتها منه لنرى مَنِ الذى اشتراها ، فأنت إذن تملك إقامة الدليل عليه إنْ أنكر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

الهدى : هو الدلالة على الخير والطريق إليه ، والضلال : أنْ تضلَّ عن الخير والدلالة إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى]

والهدى والضلال من المتناقضات فى الدين ، والمتناقضان لا يجتمعان أبداً ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحد على هدى والآخر على ضلال . كثيرون لا يفهمون الفرق بين الضد والنقيض ، الضد شيء يصادّ شيئاً ، لكن لا ينفيه ، كما تقول مثلاً : الشيء الفلانى أحمر أم أخضر ؟ فيقول لك : لا أحمر ولا أخضر إنما أبيض ، إذن : الضِّدان لا يجتمعان وقد يرتفعان معاً ، لا هذا ولا هذا ، بل شيء آخر . أما النقيضان فإنِ ارتفع واحد ثبتَ الآخر ، كما هنا فى الهدى والضلال .

فمعنى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] إنْ كان أحدنا على الهدى فلا بُدَّ أنْ يكون الآخر فى الضلال ، ولا ثالث لهما ، والحديث هنا عن منهج خير فى جانب الإيمان ، ومنهج شرٍّ فى جانب الكفر ، فرسول الله يقول لهم : نحن وأنتم على طرفى نقيض ، نحن نقول لا إله إلا الله وندعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعون إلى الشر ، ومع ذلك لا أحكم لى بالهدى ، ولا عليكم بالضلال ، بل أقول : أنا وأنتم على النقيض ، إنْ كان أحدنا على الهدى فالآخر فى الضلال .

بالله عليكم ، هل رأيتم حِجَاجاً أرقّ من هذا الحِجَاج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه فى جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه فى جانبهم ، ومثال ذلك ، لو حلف رجلان على شىء واحد أمام رجل أعمى أيقول لواحد : أنت صادق ، وللآخر أنت كاذب ؟ لا ، بل يقول : واحد منكما صادق ، والآخر كاذب ، فهذا حكم أوَّلى لا يُلزم أحداً .

لكن ، حين تبحث القضية يتضح لك مَنْ على هدى ومَنْ فى ضلال ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] كلمة ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤) ﴾ [سبأ] على تفيد الاستعلاء ، كأن الهدى لا يستعلى عليك ، وإنما تستعلى أنت على الهدى وتكون فوقه ، كأنه مطية تُوصِّلك للخير المطلوب وللطريق المستقيم ، فساعةَ تقرأ (عَلَى) فاعلم أن هناك مكاناً عالياً ، وهناك ما هو دون هذا .

وتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فالمغفرة تعلو الظلم ؛ لأن الظلم يقتضى أنْ تُعاقب ، فتأتى المغفرة فتعلو عليه وتمحو أثره ، وبعض المفسرين يرى أن

(على) هنا بمعنى (مع) أى مع ظلمهم[1] ، والمعية لا تستقيم هنا ؛ لأنها تسوِّى بين الظلم والمغفرة وتجعلهما سواء ، فكيف تتغلب المغفرة على الظلم بهذا المعنى ؟ إذن : لا بُدَّ أن تكون المغفرة على الظلم ، لا مع الظلم .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] فقال ﴿ عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] لأن الكِبَر كان يمنعه أنْ ينجب ، فالحق سبحانه خرق له هذه القاعدة ، وأعطاه إسماعيل وإسحاق على كِبَره[2] ، وقلنا : إن الكِبَر هو أقوى الأحداث التى يتعرَّض لها الإنسان ؛ لذلك قال سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) ﴾ [مريم]

والعُتُو يعنى : الجبروت والقوة ، أما الكِبَر فضَعْف وهُزَال وعدم قدرة على أبسط الأشياء مهما قاومه بالغذاء وبالفيتامينات ، فلا شىء يَقْوى عليه أو يمنعه ؛ لذلك إذا تعددتْ الداءات فى الجسم فلا مرجع لها إلا الكِبَر ، والإنسان بعد سنِّ السبعين والثمانين يشتكى كل شىء فى جسمه ؛ لذلك يسمونها أمراض الشيخوخة . يعنى : لا سببَ لها إلا كِبَر السن .

إذن : نقول ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤) ﴾ [سبأ] أى : أن الهدى سيكون مطيتك التى توصلك إلى الجنة وإلى النعيم ، أما الضلال فقال ﴿ فِى ضَلالٍ .. (٢٤) ﴾ [سبأ] وكأنها ظلمة تحيط بالضالِّ وهو يتخبط فيها ،

---

(١) ذكره جمال الدين بن هشام الأنصارى فى كتابه « مغنى اللبيب » (١/١٢٦) أن على تأتى حرفاً بمعنى « المصاحبة كمع نحو ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] » .

(٢) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما وُلد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة [تفسير القرطبى ٥/٣٧١٣] فبين إسماعيل وإسحاق ١٣ عاماً .

لا يدرى أين يذهب ، ومعنى ﴿مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ] واضح بيِّن .

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾

هذا تلطف آخر وارتقاء فى حِجَاج الكفار يُظهر مدى حرص سيدنا رسول الله ﷺ على أنْ يستلَّ الضَغينة من نفوس الكفار ، وتأمل : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ] فيجعل رسول الله الإجرام فى جانبه هو ولم يُسَوِّ هذه المرة بين الطرفين ، كما قال هناك ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ .. (٢٤)﴾ [سبأ] إنما وصف فعْله بالإجرام وقال عن الكفار ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] ولم يَقُلْ تجرمون .

وفى الآية دقيقة أخرى ، هى ورود (أَجْرَمْنَا) بصيغة الماضى ، كأن الإجرام حدث بالفعل ، أما هم فورد الفعل (تَعْلَمُونَ) بصيغة المضارع ؛ ليدل على أنه لم يحدث منهم بعد ، وهذا تلطف آخر ، وارتقاء فى النقاش ، وتودُّد إلى الخَصْم علَّه يرعوى ، فيفرح الله بتوبته وعودته إلى رحابه .

وهذا الأسلوب الجدلى فى الآيتين لا يتأتَّى إلا من المجادل القوى الحجة الذى لا تنزله عنها زَلَّة سابقة من خَصْمه . ومثل ذلك قولنا فى المناقشة : سلَّمنا جدلاً بكذا وكذا ، ونرضى لأنفسنا بالأقل ، لماذا ؟ لأنك تعلم أنك على الحق ، وقوة الجدل لديك تجعلك على ثقة بأن البحث فى المسألة سينتهى لصالحك .

لكن ، مع ذلك كيف يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ أنْ ينسب الإجرام إلى نفسه ؟ قالوا : لأن الجُرْم يختلف باختلاف المخاطب به ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم تنتهى الآيات إلى خلاصة هذه القضية فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

المعنى : لن نطيل معكم النقاش والحجة ؛ لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل الله بيننا وبينكم فى محكمته الإلهية ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : يحكم ويقضى ، وفى بعض بلادنا حتى الآن يقولون للقاضى : الفتاح ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : الذى يحكم عن علم كامل ، ولا تَخْفَى عليه خافية .

وسُمِّى الحكم فَتْحاً ؛ لأنه يفتح شيئاً عن شىء ويحدث فُرْجة بينهما ، فكأنهما كانا متشابكين ، بحيث يلتبس الحق بالباطل ، وكأنها معركة ، فيأتى الحكم فيفضُّ هذا الاشتباك ، وفَضُّ الاشتباك هذا هو الفتح ، ولا يفتح بين الحق والباطل إلا الله .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يأمر نبيه ﷺ : قُلْ لهم : أرونى الذين أشركتم مع الله ، وهو ﷺ يراهم بالفعل ، يرى أصنامهم التى يعبدونها من دون الله ، فما فائدة ﴿ أَرُونِيَ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [سبأ] ؟ قالوا : لأنه حين يطلب منهم هذا المطلب يعلم أنهم يَسْتحون أنْ يشيروا إليها ، ولا يجرؤون على ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار صَمَّاء ، لا تضر ولا تنفع .

ومعنى ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] من الإلحاق ، وهو أنْ تأتى بشىء جديد تُلحقه بشىء ثابت ، فكأن ألوهية الله هى الألوهية الحق الثابتة ، وآلهتهم الجديدة طارئة عليها ، ليست أصيلة ، فالإيمان ثابت وأصيل وفطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، أما هذه الآلهة فمُحْدثة طارئة باطلة ، لذلك ينفيها بقوله ﴿ كَلاَّ .. (٢٧) ﴾ [سبأ]

ثم يُضرب عن هذا الكلام السابق ليثبت الألوهية لله وحده ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [سبأ] و (بل) تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها ، فالإله الحق هو الله .

وفى موضع آخر ، يناقشهم الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] ونعلم من دراساتنا النحوية أن (إلاَّ) أداة استثناء ، تفيد إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها ، وأن المستثْنَى بعدها منصوب ، كما نقول : حضر الطلاب إلا محمداً .

فلو طبَّقْنا هذه القاعدة على هذه الآية لَكَان المعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منها الله لَفَسدتا ، لكن لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تَفْسدا ، هكذا منطق الآية إذا أُخذَتْ (إلاَّ) على أنها أداة استثناء للإخراج ، إنما (إلا) هنا ليست حرفَ استثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير)(١) ، بدليل أن ما بعدها وهو لفظ الجلالة مرفوع وليس منصوباً على الاستثناء ، فالمعنى : لو كان فيهما آلهة غيرُ الله لفسدتا .

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] جاء هنا أيضاً بضمير الغيبة (هُوَ) ، ومعلوم أن ضمير الغيبة لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : جاءنى على فأكرمتُه ، إلا مع الله سبحانه وتعالى ، فإن هو تسبق المرجع ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] لماذا ؟ قلنا : لأنه ضمير لا ينصرف إلا لغائب واحد هو الموجود الأعلى سبحانه .

---

(١) ولما كانت إلا بمعنى غير أُعْرب الاسم الذى بعدها (اللهُ) إعراب غيرِ فرفع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

معنى ﴿ **أَرْسَلْنَاكَ** .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] أى : جعلناك رسولاً ﴿ **إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ** .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] كلمة كافة تبين منزلة الرسول الخاتم ، فقبل بعثة سيدنا رسول الله كان الرسول يُبعث لقوم مخصوصين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ** .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران]

ذلك ، لأن البشر لما تكاثروا كما قال سبحانه : ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً** .. ﴿١﴾ ﴾ [النساء] تفرَّقوا فى أنحاء الأرض هنا وهناك ، والعالم لا يزال فى طفولة فطرته ، ليس فيه ارتقاءات للقاء بين هذه الجماعات ، فكانت جماعات منعزلة ، لا اتصال بينها ، ولكل بيئة منها داءاتها : فهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يعبدون الأصنام ... إلخ فيأتى الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم لا علاقة له بغيرهم .

أما سيدنا رسول الله ، فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس كافّة ؛ لأن الله تعالى عَلم أزلاً أنه سيأتى على التقاء مع الدنيا كلها ، وعلى اتصال بين الجماعات التى كانت مُتفرِّقة ، وها نحن الآن نعيش عالم القرية الواحدة ، وما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه فى وقته ، وما دام العالم التقت مجتمعاته وقاراته ، فالداءات واحدة ؛ لذلك جاء رسول واحد ليعالج كل الداءات فى كل المجتمعات ، هذا

معنى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

ومعنى أنه ﷺ خاتم الرسل أنه مشهود له ، وليس شاهداً لغيره ، فقد أخذ الله تعالى العهد على الرسل ، أنه إذا جاء محمد يشهدون له فشهدوا له جميعاً ، أما هو ﷺ فلم يشهد لأحد ؛ لأنه لم يأْتِ بعده رسول .

قال العلماء فى كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] يعنى : للناس جميعاً ، ففى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : لم تَعُدْ هناك خصوصية ، لا زمانية ولا مكانية . وحين نتأمل كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] نجد لها مناسبة فى واقع لغتنا ، استقر على ألسنة العامة : نشاهد الخياط مثلاً حين يخيط ثوباً يُعمل المقصَّ فى القماش ، فيقطعه إلى لُحمة وسُدة ، لكن تخرج خيوط الثوب من خلال أطرافه كما نقول القماش (بينسِّل) فيجمع الخياط هذه الأطراف بعضها إلى بعض ، بحيث تكون أطراف القماش إلى الداخل ، وهذه العملية نسميها (كفكفة) القماش ، أو نسميها الآن (السَّرْفلة) .

ومن ذلك كلمة (كَافَّة) يعنى : جَمْع شتات الناس فى كل زمان ومكان ، بحيث لا يخرج منهم جنس ولا جماعة ، ولا يشذّ عن منهجه أحد .

وعندنا فى الفلاحين نبات ينمو على حوافّ القنوات اسمه النجيل ، وهو غير الحشيش المعروف ، والنجيل لا يرتفع عن سطح الأرض ، وتتشابك عيدانه وجذوره بحيث يمنع هذه الحوافّ أن تنهار ، أو يسقط منها الردم فيسدّ القناة ، فكأن النجيل أدى مهمة هى كفّ

الردم ومنعه أنْ ينهار يعنى : كفّ جنساً أن يشرد عن مهمته .

وكلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] من كفّ الشيء يكُفُّه ، فهو كافٌّ ، وزيدت تاء التأنيث للمبالغة ، كما فى عالم وعلاَّم وعلاَّمة ، لذلك يقول ربنا عن نفسه سبحانه : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾ [التوبة] فإنْ قُلْتَ : لماذا لم يَقُلْ علاَّمة ؟ نقول : لأن علْم الله تعالى لا يترقى بلاغة وقلَّة .

فمعنى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ] يعنى : تكفُّهم وتمنعهم عن كل شر يفسد الصلاح فى الأرض ، وهذه هى مهمة المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] إما وَصْف للناس بمعنى جميعاً ، وإما وَصْف لرسول الله بمعنى كافٌّ للناس عن الشر ، والتاء للمبالغة .

ومعنى ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] من البشارة ، وهى أنْ تخبر بخير لم يَأْت أوانه بعد ، ويقابلها النذارة ، وهى أن تخبر بشرٍّ لم يأْت أوانه بعد ، فميْزة البشارة أنها تخبرك بالخير القادم لك لتأخذ بأسبابه وتُقبل عليه وتجتهد فى سبيله ، وأنت مشتاق إليه ، كذلك النذارة تحذرك من الخطر المقبل لتنصرف عن أسبابه وتدفعه عنك .

ومثال ذلك : المعلم الذى يُبشِّر التلميذ المجتهد بالنجاح والتفوق ، وينذر المهمل بالفشل والرسوب ، لماذا ؟ لأنه يريد من المجتهد أنْ يزيد فى اجتهاده ، ومن الكسول المهمل أنْ يترك الكسل والإهمال ليتفوَّق هو الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [سبأ] أى :

لا يعلمون أنك الرسول الخاتم ، أو الرسول الذى جاء ليمنع الشر عن البشرية كلها ويصلح حركتها . وما دام أكثر الناس لا يعلمون ، فمعنى ذلك أن القلة هى التى تعلم ، وهذه القلة العالمة هى خميرة الخير فى الوجود ؛ لذلك نرى الناس مهما بالغوا فى الإلحاد ، وفى الخروج عن منهج الحق لا بُدَّ أن تخرج من بينهم هذه القلة التى تتمسك بالحق وتسعى إليه وتنادى به ، فهى موجودة فى كل زمان ومكان وإنْ قَلَّتْ

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

إذن : لا بُدَّ أنْ تبقى فينا هذه القلة كنماذج وخليّات للخير ، ولاستبقائه بين الناس مهما أظلمتْ الدنيا من حولهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المتأمل فى كتاب الله يجد الحق - سبحانه وتعالى - لم يجعل القرآن أبواباً منفصلة ، هذا للصلاة ، وهذا للزكاة ، وهذا للربا ... إلخ إنما يخلط هذه الأحكام فى نسق رائع ، ومزيج مشوِّق ، يراوح بين الأساليب ، فلا يملُّ منه قارئه ، ولا يزهد فيه .

القرآن ليس كتابَ قانون ، يُفرد فصلاً لكل جريمة ، إنما يتناول

(١) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٠) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (٤٧٦/١) .

الجريمة بأسلوب فريد ، فيذكر الجريمة ويُفظِّعها ويبين أثرها ، حتى إذا ما قرر العقوبة عليها تجد هذه العقوبة طبيعية تتقبلها النفوس ؛ لأن صاحب العقوبة يستحقها .

يقول تعالى حكاية عن الكافرين : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩) ﴾ [سبأ] والوعد لا يكون إلا بالخير ، والوعيد يكون بالشر ، وعجيب أنْ يسمى الكفار القيامة وَعْداً ، فكان ينبغى أنْ يقولوا متى هذا الوعيد ، أو : أن الله تعالى لوى ألسنتهم ليقولوا كلمة الحق ، فهو بالفعل وَعْد حق من الله ، وإنْ كان فى حقهم وعيداً .

والوعد من الله فيه أشياء كثيرة ، خاتمته البعث والحساب ، ثم الجنة أو النار . لكن هل وَعْد الله لا يتحقق إلا فى الآخرة ؟ قالوا : لا بل يروْنَ شيئاً منه فى الدنيا ، وإلا لو تركهم الله سالمين إلى أنْ يعاقبهم فى الآخرة لاستشرى فسادهم ، ولَعربد غير المؤمنين دون رادع لهم .

لذلك من حكمته تعالى أن يُعجِّل لهم شيئاً من وعده ، فيروْنَه فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفعلاً ، جاء يوم بدر وهزمهم الله ، وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وأُسر منهم مَنْ أُسر ، فكما صدقت فيهم المقدمات ، فسوف تصدق المتواليات فى الآخرة .

لذلك يخاطب الحق نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فمَنْ لم يتحقق فيه وَعْد الله فى الدنيا وتشاهده بعينيك ، فموعده الآخرة ، وإلا فهناك من الكفار مَنْ مات قبل بدر ، ولم يشهدوا انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، ولم ينَلْهم شىء من عقاب الدنيا .

وقولهم : ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩)﴾ [سبأ] استبطاء للعذاب .

ثم يأمر الله تعالى نبيه أنْ يرد عليهم : ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾ [سبأ] هو يوم النصر عليهم ، كما فى يوم بدر ، حيث أذاقهم الله الذلة والهوان والموت ، وقَضى على جبروتهم ، أو هو يوم القيامة .

والذى ضرب لكم هذا الميعاد هو القادر على إنفاذه ، وليست هناك قوة تمنعه سبحانه أنْ يفى بما وعد ، أو حتى يُؤخِّره لحظة واحدة ، وهو سبحانه العليم بأن الآيات الكونية لا تشذّ عما أراد سبحانه .

وسبق أنْ بينَّا أن البشر حين يَعدُون لا يملكون أسباب الوفاء بوعودهم ، لذلك علَّمنا ربنا ـ عز وجل ـ أنْ نحتاط لذلك ؛ فقال سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لأن الله يحب لعبده أن يكون صادقاً ، فحين يعلق فِعْله على مشيئة الله يُعفى نفسه من الكذب وإخلاف الوعد حين عدم الوفاء خاصة ، وهو لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، إذن : اطرح المسألة على مَنْ يملك كل هذه العناصر ؛ لذلك نُسمِّى الوعد من الناس وَعْداً ومن الله الوعد الحق يعنى : الذى لا يتخلف أبداً .

ومعنى ﴿لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾ [سبأ] أنه : ميعاد مضبوط ، وكأن الحق سبحانه يريد بذلك أنْ يستقبل الإنسانُ كلَّ المعطيات التى منحه الله ، وأنْ تظل دائماً فى ذهنه لا يغفل عنها .

وجاء (يَوْمٍ) نكرة مبهمة ، والإبهام هنا هو عَيْن البيان ، كما

سبق أنْ أوضحنا ، فحين يبهم اللهُ مثلاً أجلَ الإنسان يظل دائماً متذكراً له ، ينتظره فى أى وقت ، ويتوقعه فى كل نفَس ، وفى كل لحظة دون أنْ يربطه بمرض أو غيره ، فالموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه : (١)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ (٢) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾

قولهم ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. (٣١)** ﴾ [سبأ] يدل على لجلجتهم ، ففى موضع آخر حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)** ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غُبارَ عليه ولا اعتراضَ ، الاعتراض على مَنْ نزل عليه القرآن ، كذلك من الغباء قولهم : ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧)** ﴾ [القصص] فاعترفوا أنه جاء بالهدى .

ومثله قولهم : ﴿ **لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧)** ﴾ [المنافقون]

---

(١) يريد كفار قريش . وقال ابن جريج : قائل ذلك هو أبو جهل بن هشام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٧١) .

(٢) قال القرطبى فى تفسير الآية (٨/٥٥٧١) : « قيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلَّة علمهم » .

صحيح ، الباطل لجلج ، يتخبط هنا وهناك فى تفكير مُشوّش ليس له سيال واحد ، وهذا التخبط يكشف ما هم عليه من الباطل ، وقلنا : إن المحقق الماهر هو الذى يصل إلى الحقيقة من خلال مناقشة المتهم مناقشة تُوقعه دون أن يدرى ، ذلك لأن المتكلم بالحق يحكى واقعاً على هيئة واحدة ، فمهما أعدْتَ عليه السؤال يُجب إجابة واحدة .

أمّا الكاذب فلا يحكى واقعاً ، إنما يحكى كذباً واختلاقاً لا بُدَّ أن ينتهى بتضارب فى أقواله ، كالكذاب الذى جاء يحكى للناس يقول : رجعت من (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ظهر).

وقديماً ، قال العربى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً . يعنى : تذكر ما سبق أنْ قُلْته ، ذلك لأنه لا يستند إلى واقع .

ومعنى ﴿ **وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ** .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل .

بعد أن قالوا هذا الكلام أراد الحق سبحانه أن يُقطع الرد عليهم فقال : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ** .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يا محمد ﴿ **إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ** .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : بين يدى الله ، ينتظرون الفصل والحساب .

تعلمون أن (لَوْ) أداة شرط تحتاج إلى جواب ، هذا الجواب حُذف من سياق الآية ليدلَّ على التهويل والتفظيع . وتقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم .. لرأيتَ أمراً عظيماً ، وهذا الأسلوب تذهب فيه النفس كلَّ مذهب ، وتتصور ألوان العذاب والذلة التى يعانيها الكفار فى هذا الموقف بين يدى الله عز وجل ، فحَذْف الجواب هنا أبلغ من ذكره .

كنا نرى (زمان) الرجل الظالم أو المتجبر أو (البلطجى) الذى يجلس طوال النهار على القهوة ، والناس تخدمه ، وتقضى له حاجته اتقاء شره ، لكن ساعة يقع فى أيدى العدالة وتأخذه الشرطة ، وأنتم تعلمون ما تفعله الشرطة بالمجرمين ، ساعتها يفرح الناس فيه ويتندَّرون به : لو رأيتم ما حدث لفلان ؟ يعنى : حدث له أمر عظيم يناقض جبروته الذى كان يمارسه على الناس ويكسر شوكته .

إذن : حُذف الجواب لنأخذه نحن على المحمل المخيف ؛ لأنه لو حكى واقعاً لجاء على لون واحد وهيئة واحدة .

لذلك ؛ وقف المستشرقون معترضين على قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا [1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] يقولون : نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نَرَ رؤوس الشياطين ، فكيف يُشبِّه القرآن مجهولاً بمجهول ؟

نعم ، ينبغى فى التشبيه أنْ تُشبِّه المجهول بالمعلوم ، والخفى بالجلى ، لكن هؤلاء يحاولون تصيُّد أخطاء أو مآخذ على كتاب الله ، وهيهات لهم ذلك ، وكل اعتراضاتهم على كلام الله تأتى من عدم فَهْم للآيات وعدم وجود الملَكة العربية وعدم الإلمام بلغة القرآن وأساليب العرب ، فهذا النهج فى التشبيه نهجه العربى القديم حين قال[2] :

---

(١) الطلع : نَوْر النخلة الذى هو أصل ثمارها ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً . [القاموس القديم (١/٤٠٥)] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٠) : « هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برءوس الشياطين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر » .

(٢) هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى ، شاعر جاهلى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ، مولده بنجد عام ١٣٠ ق . هـ ، كان أبوه ملك أسد وغطفان ، قال الشعر وهو غلام ، جعل يُشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فأبعده أبوه إلى حضرموت وهو فى نحو العشرين من عمره ، طاف قبائل العرب بعد أن طلبه المنذر ملك العراق ، حتى ولاه قيصر الروم إمارة فلسطين ، فرحل إليها ، ولما كان بأنقرة ظهرت فى جسمه قروح ، فأقام فيها إلى أن مات عام ٨٠ ق . هـ عن ٥٠ عاماً . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD].

أَيَقْتُلنى والمشْـرَفىُّ مُضَاجِعى ومَسنُونة زُرْق كـأنياب أَغْوالِ[1]

هكذا رأى العربـى القديم أن أسنَّة الرماح كـأنياب الأغـوال ، فهل رأى أحد الغـول ؟ إذن : القرآن عـربى ، وخاطب العـربَ بأساليـبهم ، فيكـفى لتـبشـيع الصـورة أن تحاول أنـت أنْ تتـخـيل صورة الغـول أو صورة الشـيطان لتذهب نفسُك فى بشـاعتها مـذاهب شتَّى مخيـفة مُـفْـزعـة ، بدليل أننا إذا قلنا لرسـامى الكـاريكاتيـر فى العـالم كله : ارسموا لنا صـورة الشيطان ، فسوف يرسمهـا كل واحد منهم حَسْب رؤيته هو ، وستأتى صور مخـتلفة بعضها عن بعض ؛ لأن أحداً منهم لم يَرَ الشيطان ، إنما تخيَّله .

تُرَى ، لو حدد القـرآن شكل شجـرة الزقوم وقال لك : إنهـا مثل كذا أو كـذا ، أيعطيك هذا التـشبـيه بشـاعة أكثـر ممـا أعطتْكَ رؤوس الشياطين ؟ هكذا ربَّبَ الحق سبحانه هذا المعنى .

ثم تستـمر الآيـة فى وصف مـوقف هؤلاء الظالمـين بين يد الله تعالى، ويا ليـتها تنتهى عند الذلة والانكسـار ، إنما ﴿ **يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ** (٣١) ﴾[سبأ] يعنى : يتجادلون ويتنـاقشون ، يرمى كل منهم باللائمة على الآخـر ، ومعنى (يرجع) من المراجعـة ، فواحد يقول ، والآخر يردُّ كـلامه ويُنكره ، وفـى القرآن مواضـع كثيـرة تحكى هذه المراجعة بين الأتباع والمتبوعين ، وهنا نموذج منها :

﴿ **يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** (٣١) ﴾[سبـأ] يعنى : الضـعفاء والمـقلدين ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** (٣١) ﴾[سبأ] وهم السادة الكبار المـتبوعون ﴿ **لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** (٣١) ﴾[سبأ] فيكفى من عظمـة القيامـة أنْ يقف المستـضعف

(١) البيـت من بحر الطويل . ذكـره له ابن سلام الجـمحى فى « طبـقات فـحول الشـعراء » ، وياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » .

أمام القوى ويراجعه ويواجهه - مع أن كلاهما خائب خاسر - ذلك لأن الضعف كان فى الدنيا والاستكبار والتبعية ، أما الآن وفى ساحة الحساب فقد تساوتْ الرؤوس ، وها هم الضعفاء يقولون لأسيادهم ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ]

وما دامت المسألة مراجعة ، كُلٌّ يُرجِع إلى الآخر قوله ، فلا بُدَّ أنْ يرد الذين استكبروا ، وأنْ يراجعوا الذين استُضْعِفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾

يرد الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾[سبأ] يعنى : ما منعناكم عن الهدى ، وما حُلْنا بينكم وبين الإيمان ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ] يعنى : بطبيعتكم ، فقد وجدتم طريقنا سهلاً ، وعبادتنا لا تكليف فيها ولا مسئولية ، ليس فيها صوم ولا صلاة ولا زكاة ، ولو فكرتم وأعملتُم عقولكم ما تبعتمونا .

وهذا هو نفسه منطق الشيطان حين يناقش أولياءه يوم القيامة ، ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

الفعل أصرخ يُصرخ فهو مُصرخ ، اسم فاعل للذى يصرخ ويستجير بغيره لينقذه من أمر فوق طَاقته وإمكاناته ، فإنْ أنقذه

يُقال : أصرخه يعنى : أزال صراخه والمفعول منه مُصْرَخ به ، والمعنى فى قول الشيطان : إننى لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم لا تستطيعون أن تزيلوا صراخى ، فالمسألة انتهت ، ولا ينفع أحداً ولا ينقذه إلا عمله الصالح .

ثم يردُّ الذين استُضْعِفوا ويُرجِعون القول إلى الذين استكبروا مرة أخرى ، يقولون :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ [1] لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا استمرار فى المراجعة والحوار ، كُلٌّ يلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهموهم بالإجرام ، وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى تدين خفيف ، لا تكاليف فيه ، ولا منهج يقيد شهواتهم ردَّ المستضعفون ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] يعنى : المكر الذى ينشأ فى الليل ، والمكر الذى ينشأ فى النهار ، حيث قضيتم الليل والنهار تُلحُّون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٧٣) : « أسروا الندامة . أى أظهروها . وسر من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . وقيل : أى : تبينت الندامة فى أسرار وجوههم . وقيل : الندامة لا تظهر ، وإنما تكون فى القلب ، وإنما يظهر ما يتولد عنها » .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : شركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] فالندامة تعتصرهم ، ومع ذلك لا يجهرون بها ولا يُبْدونها حتى لا يشمت بهم الآخرون ، وفَرْق بين أنْ يندم الإنسان وبين أنْ تُلجئه الظروف ، لأنْ يعلن الندم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] الأغلال : القيود ، ومعنى ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[سبأ] تنبيه للمؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام وهذا الجزاء : إياكم أنْ تأخذكم بهؤلاء رِقَّة على حالهم فى الآخرة ، وانظروا إلى ما فعلوه فى الدنيا من إجرام ؛ لتعلموا أن الله تعالى عادل لا يظلم الناس ، ولكن الناسَ أنفسهم يظلمون .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المطففين] إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

ذلك لأن الجريمة حين ينتهى وقتها ، وتهدأ آثارها ينسى الناسُ بشاعتها ، ولا يذكرون إلا بشاعةَ العقاب عليها ، أو ترقّ للمجرم قلوب الذين لم يشهدوا جريمته ؛ لذلك يُذكِّرنا الحق سبحانه بعدله ، وأنَّ هذا الجزاء جزاء وفاق ، فلا تأخذكم بالمجرمين رأفة ، ولا ترحموهم فى هذا الموقف المخزى الذليل ، وضَعُوا عقوبتهم أمام جريمتهم يوم كذَّبوا الرسل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ[1] إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

نلحظ فى هذه الآية أنها ذكرتْ النذارة ، ولم تذكر البشارة ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث عن قرية استشرى فيها الفساد بحيث لم يَعُدْ لها إلا النذارة ، فهؤلاء قوم كذَّبوا الرسل ، ووقفوا من الدعوة موقفَ العداء والمكابرة . أما البشارة فتكون فى عموم الدعوة ، والحديث هنا عن دعوة خاصة بهؤلاء المكذبين .

ومعنى ﴿فِى قَرْيَةٍ ﴿٣٤﴾﴾[سبأ] أى : فى أهل قرية ، والقرية اسم للمكان ، أو أن الله سبحانه جاء بالمكان وإنْ كان يريد المكين ؛ لأن المكان كجماد مُسبِّح لله ، فيفرح بالمؤمن المسبِّح فيه ، ويحزن ويضيق بالكافر الذى يقيم فيه ؛ لذلك يقول العربى القديم : فلان نبا به المكان يعنى : المكان كرهه ، ولما قالوا لرجل حكيم : أدريتَ أن فلاناً باع أرضه ؟ قال : بل باعَتْه أرضه .

وقوله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٣٤﴾﴾[سبأ] جمع مُتْرف وترف يترف أى : تنعَّم . أما أترف فتعنى أن النعمة أطغَتْه وفتنته ، فالحق سبحانه لم يمنع عبده أنْ يتمتع بنعمه ، المهم ألاَّ تُطغيه النعمة .

وقد يكون الترف والتنعُّم استدراجاً من الله للعبد ، وإملاءً له ، ومَدّاً له فى النعمة حتى يَطْغى بها ، وتأمل مثلاً قول الله تعالى :

---

(١) قال قتادة : مترفوها هم جبابرتهم ورؤوسهم وأشرافهم وقادتهم فى الشر ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٦/٧٠٤) .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ (٤٤) ﴾[الأنعام] ولم يقُلْ لهم يعنى ليس هذا الفتح فى صالحهم مع أنه فى ظاهره نعمة ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا (٤٤) ﴾[الأنعام] وتعوَّدوا النعمة وألفوها ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك ، ليس من الصواب قولُكَ لأخيك : فتح الله عليك والصواب : فتح الله لك . واقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر]

وحكوْا لنا عن سياسى كبير كان له خصم ، ففوجئوا بأنه أصدر قراراً بترقية هذا الخَصْم إلى منصب كبير ، فتعجبوا : كيف يُرقى خصمه ؟ فقال : أرفعه إلى منزلة عالية ، حتى إذا سقط منها كان السقوط مؤلماً ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق الحصيرة مثلاً .

ومن الاستدراج بالنعمة والترف قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

البعض يخطىء فَهْم هذه الآية ، فيقول : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (١٦) ﴾ [الإسراء] أن الفسق مترتب على الأمر . والله سبحانه لا يأمر بالفسق ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعبادة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ (٥) ﴾[البينة] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...(٩٠) ﴾[النحل] فالمعنى : أمرنا مترفيها بما يأمر الله به ، فما كان منهم إلا أنْ فسقوا فيها أى : فسقوا فى الأمر ، إذن : الفسق ليس مترتباً على الأمر ، وإنما على مخالفة الأمر .

الحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية الترف والإتراف يقول : أنا أنعمتُ على عبادى نعماً يتنعَّمون بها ، إنما كنتُ أريد أنْ

يستقبلوا هذه النعم بالشكر ، وأنْ يُعدوا النعمة إلى غير المنعَّمين ليحصل فى المجتمع المسلم التكافل الاجتماعى المطلوب ، ولينزع هذا التكافل الغلَّ والحقد من قلوب الفقراء على الأغنياء .

فالفقير إذا رأى الغنى ينتفع بآثار النعمة ، ويتمتع بها دونه ، يحقد عليه ، ويتمنى زوال نعمته ، فإنْ ناله منها شىء أحبَّ الغنى ، وسأل الله له المزيد ، هذا من ناحية الفقير .

أما من ناحية الغنيِّ ، فالحق سبحانه يعلم أن الإنسان عامة مطبوعٌ على النفعية لذاته وحب الخير لها ؛ لذلك عامله الحق سبحانه بهذا المنطق ، منطق النفعية حين يعطيه جزاءَ ما أنفق ، ويثيبه على ما يفعل من الخير ، قال له : الحسنة بعشر أمثالها ، غُض طرفك عن المحارم فى الدنيا أمتعك بالحور العين يوم القيامة .. الخ

لذلك يقولون : إن التدين نفعية عالية ، فأنت مثلاً ما آثرتَ الفقير على نفسك ، وما أعطيتَهُ ما فى جيبك إلا لأنك تريد من الله تعالى أضعاف ما أعطيت . إذن : أنت حتى فى تجارتك مع الله تحب النفع لنفسك .

والحق سبحانه يعطى الغنى وصاحب الهمة العالية الذى يكدح ويتعب ويُكوِّن الثروة ، يعطيه حقه ، ويحترم جهده وعرقه ، ويحترم مشاعره النفعية ، فحين يسأله يسأله جزءاً من ماله ، لا ماله كله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ (١) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) ﴾ [محمد]

(١) يحفكم : يلح عليكم . ويكثر ويلح فى الطلب والسؤال . وقال قتادة : علم الله فى مسألة الأموال خروج الأضغان ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٥٠٥).

ويُحبِّبهم فى الإنفاق بنفس هذا المنطق : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ..(٣٨)﴾ [محمد]

إذن : مسألة الإنفاق هذه تُخرج ضغْن[1] الغنى، كما أخرجتْ ضغْن الفقير ، فهى تُحدث استطراقاً إيمانياً ، واستطراقاً اقتصادياً فى المجتمع ، فصاحبُ المال يحمد الله على النعمة ، ولا يبخل بها على الفقير ، والفقير يحمد الله أنْ جعل النعمة فى يد مَنْ يجود بها عليه ، وهكذا يحدث التوازن فى المجتمع .

نعود إلى ما كُنَّا بصدده من قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ] لماذا أنتم كافرون بما جاء به الرسل ؟

الحق - تبارك وتعالى - يريد من العباد ألاَّ يستعلى قوى على ضعيف ، وألاَّ يستعلى غنى على فقير ، وألاَّ يستعلى عالم على جاهل ، إنما يريد أن يعمَّ الخير ، فمَنْ كانت عنده خَصْلة من خصال الخير عدَّاها إلى غيره .

أما هؤلاء فقد اختاروا الكفر ، واطمأنوا إليه ؛ لأن النعمة أطغتهم وأترفتهم ، فمالوا إلى البذخ وإلى المظالم حتى عَشقوا هذا كله ، فلما جاء الدين ليُعدِّل من سلوكهم صادموه ، وحاولوا طمسه والقضاء على دعوته ؛ لأنهم ألفوا السيادة ، وألفُوا الطغيان ، ولا يريدون أنْ تُسلب منهم هذه السيادة . وإلا لو أن العالم كان مستقيماً متوازناً ما كانت هناك حاجة للرسل ، إذن : ما جاء رسول إلا بعد أنْ عَمَّ الفساد وطَمَّ .

---

(١) الضِّغن : الحقد والعداوة والبغضاء . والجمع أضغان ، وكذلك الضغينة وجمعها الضغائن . (لسان العرب مادة : ضغن) .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه خلق فى النفس الإنسانية مناعة إيمانية نتيجة الفطرة الأولية ، لكن الشهوات وتقاليد الظالمين تطمس هذه الفطرة ، فتحتاج إلى مُذكِّر يعيدها إلى الطبيعة والفطرة التى خلقها الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ [الغاشية] يعنى : ليس بادئاً .

والحق سبحانه يُبين أن الناس أمام الخير والشر أنواع ثلاثة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ [فاطر]

فالظالم لنفسه هو الذى يفعل السيئة ، ولا يلوم نفسه ، ولا يندم على سيئته ، ولا يتوب منها ، فهو يظلم نفسه ؛ لأنه يحرمها الجزاء والنعيم الأبدى . والمقتصد هو الذى يتردد بين الحسنة والسيئة ، فإنْ فعل سيئة تذكَّر ولام نفسه وتاب ، ثم يفعل الحسنة لتُكفِّر السيئة ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ [التوبة]

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (٣٢)﴾ [فاطر] يُراد به أمة محمد ﷺ ؛ لأن الميراث يعنى أن الموروث ينتقل من السابق إلى اللاحق ، فأمة محمد ورثتْ الرسل جميعاً فى كل أمورهم الخيرية ، وتكفَّلَتْ بأن تردع الشر فى كل نواحيه ، وبذلك ورثوا الرسالات كلها ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وأنتم تشهدون أنكم بلَّغتم مَنْ بعدكم ، رسولكم فوَّضه الله فى أنْ يُشـرِّع لكم ، وفوَّضكم أنتم فى أنْ تحملوا منهجه من بعده ؛ لذلك انقطعتْ الرسالات بعده ﷺ ؛ لأن أمته ستقوم بمهمة الرسالة ، وهذا دليل على أنها أمة ، الخيرية فيها باقية إلى قيام الساعة .

وقولهم : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] بم أُرسِل الرسلُ ؟ أُرسِلوا أولاً بقضـية التوحيـد ، وأنه لا إله إلا الله ، أرسلوا بالبلاغ عن الله ، أرسلوا بمعجزات ، أُرسلوا بأحكام ومناهج تحـكم حركة الحياة . فهؤلاء كفروا بهذا كله لأنهم يريدون أنْ يـعيشوا فى ترفهم وظلمهم ، وأنْ يستبدوا كما يشاؤون .

لكن قولهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] دلَّ على غبائهم ؛ لأنهم لم يقولوا مثلاً بما جئتم به ، أو بما ادعيتموه ، إنما بما أُرسلتم به ، فهم يعترفون بـأنهم مُرسَلُون ، فهذه كلمة الحق ساقـها الله على ألسنتهم ، كمـا ساقه على ألسنتـهم فى قولهم : ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] وقولهم لما فتر الوحى عن رسول الله : إن رب محمد قلاه[1] .

إذن : هم يعترفون لرسـول الله بالرسالة ، والمرسل لا يُرسَل من مثله ، إنما من جـهة أعلى ، فالرسالة ليست من عند مـحمد : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبـريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : وَدَّع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(١٦) ﴾ [يونس] لكن ، ما علة هذا الكفر ؟

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾

قلنا : إن الدين إنما جاء ليُحدث توازناً فى المجتمع واستطراقاً عقدياً واقتصادياً واجتماعياً ، فمنطق هؤلاء الذين كفروا بالرسل أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا كله ، فعندهم المال والأولاد ، وعندهم كل مُتع الحياة .

﴿وَقَالُوا .. (٣٥)﴾ [سبأ] أى : فى حيثيات كفرهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا (٣٥)﴾ [سبأ] بل أكثر من ذلك يأخذهم غرورهم إلى أن يقولوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] لماذا ؟ يقولون : لأن الله ما كان ليعطينا هذا النعيم فى الدنيا ، ويضنّ علينا فى الآخرة .

لكن نقول لهم : أنتم واهمون ، فَفَرْق بين عطاء الألوهية وعطاء الربوبية ، الله تعالى أعطاكم بعطاء الربوبية الذى يشمل الجميع المؤمنَ والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية فتكليف ، فالله يعطيكم فى الدنيا بعطاء الربوبية ، ويعاقبكم فى الآخرة بمقتضى الألوهية .

وهذه الحيثية منهم : ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا (٣٥)﴾ [سبأ] حجة عليهم لا لهم ، فمن أين لكم هذا الخير ؟ ثم إن كثرة الأموال كان يجب أنْ تحملكم على نواحى الخير ، وكثرة الأولاد كان ينبغى أنْ تجعلوا منهم (عزوة) لكم على الحق ، إذن : كفركم بعد هذه النِّعَم دليل على أنكم استخدمتموها فى الباطل وفى الظلم والطغيان .

وما أشبه قولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] بقول صاحب

الجنة : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾[الكهف] وهذا بَطَر بنعمة الله وغرور بها ، فليس بين الله تعالى وبين أحد من خَلْقه قرابة ولا نسب ، لينعم فى الدنيا وينعم فى الآخرة بلا عمل ، فهؤلاء فتنهم المال ، وفتنتهم الذرية ؛ لذلك يقول سبحانه محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤) ﴾ [التغابن]

والحمد لله أنه قال (مِنْ) ، فهى تفيد التبعيض ، يعنى : ما يزال فى بعض الأزواج وفى بعض الأولاد عنصر الخير موجود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾

أى (قُلْ) رداً عليهم فى اغترارهم بكثرة الأموال والأولاد : ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٣٦) ﴾ [سبأ] يبسط : يُوسع الرزق بكرمه ، ويقدر : يعنى : يضيقه على مَنْ يشاء بحكمته تعالى . والرزق لازمة من لوازم الربوبية التى خَلَقَتْ ، والتى استدعت الإنسان للوجود ، فلا بُدَّ أن تضمن له مقومات حياته .

لكن الرازق سبحانه لا يرزق الناس جميعاً (بمسطرة) يعنى بالتساوى ؛ لأن الله تعالى يريد أن تكون المجتمعات متعاونة متكافلة ، ولو أن كل إنسان كان عنده ما يكفيه ما احتاج أحد إلى أحد ، وما حدث فى المجتمع هذا الترابط وهذا الاتصال الجماعى .

وسبق أنْ أوضحنا أن ترابط المجتمع لا بُدَّ أنْ يكون ترابط

حاجة ، لا ترابط تفضّل ، فلو فرضنا أننا جميعاً تخرّجنا فى الجامعة ، أو أخذنا الدكتوراة ، فمن (يكنس) الشوارع ، ومن يمسح الأحذية ؟ لو جعلنا هذه الأعمال تفضّلاً من بعضنا ما قَبِلها أحد .

وقلنا : إن الرجل المتعجرف أو المتكبر أو الباشا لو عاد إلى بيته فوجد به رائحة كريهة فسأل فقالوا : المجارى بها كذا وكذا لا شكّ أنه لن يهدأ له بال حتى تنتهى هذه المشكلة ، وربما ركب سيارته ، وذهب بنفسه إلى السباك ليُخلِّصه من هذه المشكلة .

نقول فى هذه الحالة : إن السباك فاضل على الباشا فى هذا الوقت ، لأن الله أعطاه قدرة على نفسه لا يملكها الباشا أو حامل الدكتوراة ، وهذا السباك ما تحمَّل مثل هذا العمل إلا لحاجته إليه وإلا ما قَبِلَه .

لذلك أحسن الشاعر[1] حين قال :

النَّاس لِلنَّاسِ مِن بَدْوٍ وحَاضِرةٍ
بَعْضٌ لبعْضٍ وإنْ لَم يَشْعُروا خَدَمُ[2]

وهذه الخدمة تقوم على التداول ، فالحق سبحانه لم يجعل ذرية كلها خادمة ، وذرية مخدومة ، إنما أنت خادم فى شىء ومخدوم فى شىء آخر ، وهكذا كلنا خادم ، وكلنا مخدوم ، ليعلم الإنسان أياً كان

---

(١) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، شاعر وفيلسوف ، ولد عام (٣٦٣ هـ) ومات عام (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . أشهر كتبه « رسالة الغفران » . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD] - العصر الفاطمى .

(٢) لفظ البيت كما فى الموسوعة الشعرية :

والناس بالناس من حضر وبادية   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والقصيدة من بحر البسيط .

أنه ابن أغيار ، وأن سيادته ليست ذاتية فيه ، فإنْ كان هو الأعلى عليه أنْ يُقدر هذا العلو ويعمل له ليظل على عُلُوه ، فإنْ رأى الأدنى منه فلا يحقره ، بل يُقدِّر له مهمته فى خدمته ، وأنه سيحتاج إليه فى يوم ما فى عمل لا يقدر هو عليه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. (٧١) ﴾ [النحل] كثيرون يظنون أن الرزق هو المال ، إنما الرزق كلمة عامة يُراد بها كل ما ينتفع به الإنسان ، والحق سبحانه فضَّل بعضنا على بعض فى هذه الأشياء ، لكن أىُّ بعض فضَّل ؟ وأىُّ بعض فضَّل عليه ؟ أنت مُفضَّل فيما لك فيه موهبة ، ومفضَّل عليه فيما لا موهبةَ لك فيه ، وهكذا يتكاتف المجتمع ويتكامل ، ويرتبط ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) ﴾ [الفجر] وشكراً ، وكثَّر الله خيرك أنْ نسبتَ الإكرام لربك ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر] فيقول الحق (كَلاَّ) يعنى : أنت كذاب فى هذا القول ؛ لأن بَسْط الرزق ليس دليلاً على التكرم ، ولا تضييقه دليل إهانة . وإلا كيف يكون بَسْط الرزق دليلَ التكريم ، والناس فيما يُرْزَقون لا يكرمون به اليتيم ، ولا المسكين ، ويأكلون التراث أكلاً لماً .

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر]

إذن : على الإنسان أنْ يتأدب مع الله فيما صنع ؛ لأن الله يعلم كيف يرزق ، وهو سبحانه يريد أنْ يجعل من الناس أُسْوة للناس ، فالغنى الذى افترى بماله يُبقيه الله حتى يرى فيه الفقير المفْترَى

عليه ، يرى فيه عقاب الله ليعلم أن لله تعالى ألوهية ، ولله تعالى قيومية ، لا يفلت الظالم من عقابها فى الدنيا قبل الآخرة . وهذا المعنى خاطب الله به نبيه فقال : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ثم إن مسألة الرزق لا تتوقف على مهارة ، أو شطارة ، أو علم ، فهناك مَنْ سعى للرزق وزرع واجتهد ، لكن عند الحصاد جاءتْه جائحة اجتاحت زرعه فأهلكتْه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياك أنْ تفطن إلى ألوهية الأسباب ، وتغفل ألوهية المسبب .

والرزق مقسوم لصاحبه ، وإنْ حمله غيره ، فالجنين فى بطن أمه غذاؤه من تكوينها ومن دمها ، لكن هذا الدم وإنْ حملتْه الأم ليس رزقها ، بدليل أنه إذا حدث الحمل توافر هذا الدم لغذاء الجنين ، فإنْ لم يحدث الحمل نزل منها هذا الدم فى عملية الحيض ، ولم تنتفع به الأم ، لماذا ؟ لأنه ليس رزقها هى ، وهذا يساعدنا فى فهم قوله تعالى : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣١)﴾ [الإسراء]

لذلك قالوا : ليس كل ما تملك رِزْقاً لك ، إنما رزقك ما انتفعتَ به، فالشيء يكون فى ملكك وفى حوزتك تظن أنه لك ، ثم يضيع منك ، أو يُسرق أو يُؤمَّم أو تُصيبه جائحة .. إلخ بل أكثر من ذلك قد يكون طعاماً وتأكله بالفعل ، ويتمثل فى جسمك دماً يجرى فى عروقك ، ثم يسيل منك بسبب جرح ، أو عملية جراحية مثلاً : إذن : هذا الدم ليس رزقاً لك .

فالمؤمن ينبغى أنْ يطمئن إذن إلى عملية الرزق ، ويعلم أنها بقيومية الله التى ترزق المؤمن والكافر ، وأن الرزق مقسوم لك ، مُسمّى باسمك ، فلا يأخذه غيرك مهما كان ، فإنْ بُسط لك فاحمد

الله ، وإن قُتِّر وضُيِّق عليك فاعلم أنها بحكمة الله ، واقرأ :

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

ثم تُختم الآية بقوله تعالى :﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [سبأ] فالأكثرية لا يعلمون حكمة الله فى تفاوت الأرزاق ، وهذا يعنى أن قلة منهم هم الذين يعلمون ، فاللهمَّ اجعلْنَا من هذه الأقلية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧)﴾

الكلام هنا مُوجَّه إلى الكفار الذين ظلموا بأموالهم وأولادهم ، فمثل هذا المال ، ومثل هؤلاء الأولاد لا يكونون أبداً زلفى ، ولا قربى إلى الله ، لكن إن استغل هذا فى مرضاة الله وفى سبيل الله وفى أبواب الخير فهو من أعظم القربات .

المال يُنْفَق منه فى نواحى الخير ، والأولاد يُربوْن التربية الصالحة ليكونوا أسوة خَيْر فى مجتمعهم ، لذلك استثنى الله تعالى فقال : ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا (٣٧)﴾[سبأ] أى : فيما أعطاه الله من نعمة المال ومن نعمة الأولاد .

﴿فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا (٣٧)﴾[سبأ] وهكذا فتح الله الباب للنعمة ، حين تُستغل فى مرضاة الله ، فليس كل الأموال ولا كل الأولاد نعمة ، فالمال قد يجرُّ صاحبه إلى الهلاك ، ويلقى به فى النار، والأولاد الذين ظننتَ أنهم لك عِزْوة وقوة قد تنقلب هذه العِزْوة عليك .

ورأينا كثيراً من الذين يبحثون عن هذه العزْوة فى الباطل ، لكن يريد الله أنْ يُذلّهم بما فتنوا ، يذهب الرجل مثلاً فيخطب لولده بنت أحد الأعيان ، أو الأغنياء ، أو أحد أصحاب المناصب ، ويفرح بهذا النسب ويفخر به ، لكن أضمنتَ أنك سترضى هذه البنت ؟ وأنك لن تختلف معها فى يوم من الأيام ؛ لذلك كثيراً ما تنقلب هذه العزْوة وهذا الجاه على صاحبنا ، فيُذله الله من حيث ظنَّ هو العزة والكرامة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] لا يأتى الضعف إلا فى جزاء الحسنة ، أما السيئة فلا تُضاعف ، إنما يكون الجزاء بمثلها ، وهذا من رحمة الله تعالى بنا ، وقال ﴿ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] ولم يقُلْ الأضعاف ؛ لأن (الضعف) اسم جنس يصلح للقليل وللكثير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فاستثنى (الذينَ) وهى جمع من المفرد (الإنْسَانَ) لأنه اسم جنس.

والضِّعْف أى : مضاعفة الحسنة ، أو مضاعفة الصدقة ، ومن معانى الضِّعف أنك إذا وزنتَ الأصل الذى أنفقتَه وجدته ضعيفاً بالنسبة لما أخذتَ عليه من الجزاء .

وليست المضاعفة هى نهاية العطاء عند الله ؛ لأن الحديث النبوى الشريف أكمل هذه المسألة ، فقال ﷺ : « الحسنة بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف »[1]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب الصيام - باب فضل الصيام) حديث رقم ١٦٤ وكذا ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٤٣ ، ٥١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله » .

فالله تعالى يُضاعف لمن يشاء على قَدر النيات فى العطاء والبَذْل ، فواحد يعطى وفى نفسه أنه أعطى وبذل من ماله ومن جهده ، وآخر يعطى ويؤمن أنه مجرد مُناول عن الله ، فالمال عنده مال الله ، والعطاء من الله .

ومن صور العطاء ما تعلَّمناه من السيدة فاطمة ، فرُوى أن سيدنا رسول الله دخل عليها فوجدها تجلو درهماً لها ، فَسألها رسول الله عنه فقالت : لأننى نويت أنْ أتصدق به ، وأنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير .

ثم إن المتصدق بمجرد أنْ يُخرج الصدقة من يده تخرج قيمتها من قلبه ، ولا يتتبعها ، ولا تتعلَق نفسه بها ، أما حين يُقْرِض قرضاً ، فإن نفسه لا تنساه وتتعلق به ، وكلما تحركتْ نفسه لطلب القرض صبر عليه ، فكان له الثواب على قَرْضه كلما صبر عليه .

لذلك أثار المستشرقون ضجة حول مسألة الجزاء على الصدقة وعلى القرض ، وادعَوْا تضارب الآية والحديث فى هذه المسألة ، ففى الحديث قال ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنةُ بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1]

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وبالجمع بين الاثنين يكون القَرْض حين يُضَاعف بعشرين لا بثمانية عشر ، والحمد لله فتح الله لنا ما أُغْلِق من هذه المسألة ، فقُلْنا :

(١) عن أبى أمامة صدى بن عجلان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢ / ٣٤) .

لو أن رجلاً تصدَّق بدينار مثلاً ، فالله يجازيه الحسنة بعشر أمثالها ، لكن هل أعاد إليه الدينار الذى دفعه ؟ لا ، إنما ذهب الدينار مقابل العشرة ، إذن : أخذ فى الواقع تسعة ، فحين تُضاعف تساوى ثمانية عشر .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** (٣٧) ﴾ [سبأ] فى مواضع كثيرة من كتاب الله يجمع الله بين الإيمان والعمل الصالح ، لماذا ؟ لأنهما جناحان لا يتم العمل إلا بهما معاً ، فالعمل الصالح بلا إيمان هَبَاء لا قيمةَ له كأعمال الكفار الخيرية التى يأخذون الجزاء عليها فى الدنيا شهرةً وتكريماً وتخليداً لهم ، لكن لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، كذلك لا قيمة للإيمان إنْ لم يُترجم إلى عمل صالح .

﴿ **فَأُوْلَـٰئِكَ** (٣٧) ﴾[سبأ] أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ **لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** (٣٧) ﴾[سبأ] الغرفات جمع غرفة ، وهى المكان الذى يُبْنى عادة أعلى البيت ، وتكون خاصة للاستقرار الذاتى ، لذلك نرى حتى الآن فى بناء الفيلات مثلاً يجعلون الدور الأرضى للاستقبال العام وللطعام ، فإنْ أراد صاحب البيت أنْ يرتاح يصعد إلى الدور العلوى الذى جُعل للاستقلالية والخصوصية.

وللإنسان خصوصيات ، حتى داخل بيته وبين أولاده ، فإذا كان صاحب البيت مثلاً فى غرفة نومه ، فله الحرية أن يلبس ما يشاء ، أو حتى يجلس فيها عرياناً ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الصالة تهيَّأ لها وارتدى الملابس التى تناسبها ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الشارع تهيَّأ أيضاً له بما يناسبه من ملابس ، كذلك النادى ، أو مكان اجتماع القوم ، لكُلٍّ زى خاص وسَمْت خاص .

ولهذه الاستقلالية والخصوصية جعل الناس الآن غرفة للبنين ، وغرفة للبنات ، فإنْ لم تَكُنْ هناك سَعَة فى المكان جعلوا سريراً للولد ، وسريراً للبنت .

فالحق سبحانه يحفظ لعبده قَدْره ، ويحفظ له هذه الخصوصية ، وهى خصوصية آمنة لا يُنغص أمنها فَزَع ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ]

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ(١) أُوْلَـٰٓئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾

نقول : سعى فلان بفلان عند السلطان ، يعنى : بوشاية وبإفساد ، وهؤلاء سَعَوْا فى آيات الله ليصرفوا الناس عنها ، ويشغلوهم عن سماعها .

ومعنى : ﴿مُعَاجِزِينَ (٣٨)﴾ [سبأ] مفردها مُعاجز ، والمعاجزة مفاعلة يعنى : واحد يعاجز الآخر أى : يريد أنْ يُعجزه ، إذن : المعاجزة معركة ، لكن إياكم أنْ تظنوا أنها بين مؤمنين وكافرين ، أو بين الرسل والمكذِّبين لهم ، لا إنما هى معركة عالية ، فالذين يُعاجزون يُعاجزون الله فى آياته ليبطلوها ، وليضعوا العقبات فى طريقها ، ومهما كان كيدهم فلن يعجزوا الله ، ولن يُفلتوا منه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾ [سبأ]

وهنا يقول : ﴿أُوْلَـٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾[سبأ] ومعنى محضرون أنهم يحضرون رغماً عنهم ، فهى اسم مفعول من حضر ، فهم يُجَرُّون ويُشدُّون كالمقبوض عليهم ، ومنها كلمة (مُحضر) وهو الذى يُحضِر المتهم رغماً عنه .

---

(١) المعاجز : من يحاول أن يعجز غيره . وأعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه فلم يقدر عليه . [القاموس القويم ٢/ ٧ ، ٨]